تعريف بالكتاب

اذا قال ناقد الأدب عن مؤلف نابغ من مؤلفى القصص القصار أنه لا يتفلسف ولا يتخيل ولا يكثر من تحليل الشخصيات فلا بد من سؤال منتظر يسبق الى ألسنة الكثيرين . كيف اذن يجيد كتابة القصة القصيرة ؟ أو يجيد الكتابة الفنية على اطلاقها وهو لا يتفلسف ولا يتخيل ولا يبالى أن يحلل « الشخصيات » ؟

ولا أدل على سعة العبقرية الفنية ، وعلى تعدد الملكات التى تتجمع أو تتفرق فى أعمال العباقرة الفنيين ، من أن يكون ذلك هو الواقع حقا ، وأن يكون هو الواقع فى أمر كاتب يسمى أحيانا بسيد كتاب القصة القصيرة ، ولا ينكر عليه أحد أنه فى طليعة كتابها العالميين ، وهو الكاتب الفرنسى المشهور جى دى موپاسان .

ان هذا القصاص العبقرى لم يكن مجردا من ملكة الخيال ، ولم يكن عاجزا عن استخلاص الفكرة من الحادثة كما يصنع الرواة المتفلسفون ، وليس الكتاب المحللون بأقدر منه على تصوير الشخصيات وعلى الصدق فى نقلها من الحياة والطبيعة وموافقتها لمذاهب العلماء النفسانيين ، فانه كان يخلق الحوادث ويفكر فيها ويرسم الرجال والنساء الذين يشتركون فيها رسما يرتضيه الباحث النفسانى ويجعله نموذجا له فى دراساته كنماذج الحياة المنقولة عن الطبيعة بغير تشويه أو تهويل ، ولكن هذه الملكات كانت بعض أدواته الصغرى ولم تكن أداته الكبرى التى ملك بها زمام القصة القصيرة واستحق بها أن يسمى سيد كتابها أو يتقدم الى الطليعة بين الأوائل الممتازين من أولئك الكتاب .

انما كانت أداته الكبرى حس صادق ووعى محيط يعبر عنه بكلمة محكمة وتفصيل واف ولكنه مبرأ من الفضول .

وبهذا الوعى المحيط وجدت هذه العبقرية كفايتها من مادة الغذاء التى استوعبتها من مواردها العديدة فى أدوار حياتها الحافلة على قصرها وسرعة نمائها ، لأن جى دى موپاسان لم يجاوز الثالثة والأربعين ولم تكن أيامه الأخيرة خلوا من أكدار الهم والمرض ، ولا من تلك الأكدار القاسية التى أوشكت أن تذهله عن وعيه وتغشى على حسه وتعقد لسانه عن النطق المبين فضلا عن الكلم البليغ .

نشأ موپاسان فى أسرة عريقة تقلبت بها أحوال الثورات والفتن التى عمت بلاده قبل القرن التاسع عشر فصارت الى حالة من الكفاف لاتغنيها عن طلب الرزق بعمل من أعمال الوظيفة أو الصناعة ، وتربى فى اقليم نورماندى من ريف فرنسا فعاش هناك بين الفلاحين والملاحين وعاشر النبلاء والفقراء من أبناء الاقليم فاشترك فى هوايات هؤلاء وهؤلاء من رياضة الفروسية الى ملاحة الزوارق الى ملاهى الصيد فى البر والبحر مع احكام الرماية بالليل والنهار وفى السهول والوعور ، وشهد حرب السبعين وهو ينتظم فى سلك الجندية ثم حان له أن يلتمس الرزق بعمل من الأعمال فتولى وظيفة كتابية حسنة بوزارة البحرية ثم بوزارة التربية والتعليم ، ثم اعتزل وظائف الدواوين وشرع فى كتابة القصة ونظم الشعر وهو فى نحو الثلاثين ، وألف القصص الطوال كما ألف القصص القصار ، ولكنه امتاز بالقصة القصيرة فغلبت عليه شهرتها ، ولولا مقابلة النقاد بين مطولاته وبين قصصه القصار التى تعد بالمئات لكان من أعلام القصة الطويلة فى العالم ، وان لم يبلغ فيها مبلغ النخبة الممتازين .

وفى هذه الحياة القصيرة هيأت له نشأته وأعماله وهواياته سبل الاتصال بكل طائفة من طوائف قومه وغير قومه من المترددين على باريس أو على الشواطىء الفرنسية ، أو ممن رآهم فى رحلاته العارضة الى البلاد الخارجية . وهذه هى الذخيرة الوافية التى استمد منها وعيه

المتيقظ المستوعب كل ما حشده فى قصصه من الشخوص الحية التى يظهر بينها الفلاح والصياد والسائس والملاح والموظف والرئيس والنائب والوزير والقائد والجندى ، كما يظهر بينها مئات الشخوص من الرجال والنساء على اختلاف الأمزجة والأخلاق والمنازل الاجتماعية والأفكار العامة والخاصة ، وتتألف منها جميعا « دنيا » عامرة يحسها القارىء كما يحسها فى الدنيا التى يضطرب فيها الأحياء وتتمثل فيها الطبيعة البشرية على صورة « الحقيقة المتواضعة » كما كان يقول ، فلا تزويق فيها ولا مبالغة ولا رأى فيها للكاتب غير الرأى الذى يراه الانسان فيمن يعاشرهم من صحبه وعشرائه بغير حاجة الى التحليل والتفصيل بل هى البداهة التى نتلقى بها من الطبيعة والحياة وحى الخبرة والعادة والحس المطبوع .

وقد يخلق الكاتب شخوصه وحوادثه فى الأقاصيص التى كان يرضى بها نزعة العصر الى أخبار الجريمة وأحاديث الروع والفزع ، فلا يحس القارىء أن هناك خيالا يعمل لتلفيق الحوادث وألصور الانسانية التى تلائم وقائع الاجرام والانحراف ، ولكنه يرى أنه لم ينتقل من دنياه الى دنيـــا المؤلفين والمتخيلين ، لأن أسلوب موپاسان يخلق ولا يتكلف ويعطى ما أخذ من الحياة بغير زيادة ولا اقتضاب .

ومعجزة هذا الأسلوب أنه يملك القـــارىء بتفصيلاته كما يملكه بالحادثة « المهمة » التى يقال عنها أنها بيت القصيد من القصة العرضية، فيكاد القارىء يأسف لانتقال الحديث من الاستطراد الى بيت القصيد المطلوب ، ولا يستطيع أن يقول لنفسه اذا عاود قراءة القصة هل هو يعيدها للوصول مرة أخرى الى الخاتمة أو لعبور الطـريق اليها بين الوصف والتمهيد والاستطراد .

وهذه القدرة على التعبير المطبوع هى التى أغنته كثيرا عن التبذل فى أساليب الأدب المكشوف على اسهابه فى تمثيل العلاقات بين الجنسين من الأزواج أو العشاق ، لأنه كما قال بعض نقاده يستطيع أن يكتب

ما شاء دون أن يضع النقط على الحروف ، ومن هنا يقول أصحاب الحوار فى هذه المجموعة أنه من كتاب الجنس ولكنه لا يحسب من كتاب التهتك والابتذال فليس فى مواقفه الجنسية ما يثير الغريزة ويخاطب الحيوان فى طوايا الانسان ، وانما هى المعرفة الانسانية كما ينبغى أن تعرف مع معرفة الحياة ، وان كنا مع هذا لا ننسى أنه شديد الالتفات الى هذا الجانب من الحياة .

ويصعب على الناقد أن يسلك موپاسان بين كارهى النوع البشرى Misanthrope كما يصعب عليه أن يسلكه بين طلاب الاسفاف والتشهير من زمرة الكلبيين Cynics ، فان العيوب التى يحصيها على الناس لا تعزله عنهم ولا تعزلهم عنه ، ولا نشعر من ورائها أنه يبغضهم أو يستريح الى بغضائهم ، وليس هو ممن يتتبعون النقائص والعورات كمن يتشفى بالغض من عدو أو يغتبط بالشماتة فى مصاب ، لأنه لايترفع عنهم ولا ينأى بنفسه بعيدا منهم ، ولا تلمح عليه أنه يوصيك بالنأى عنهم اذا استطعت وقد عز عليه هو أن يستطيع .

كلا . انه يعرف العيوب كما يعرف الأخ عيوب أخيه أو كما يعرف الانسان عيوب نفسه ، وكل ما يؤخذ عليه من هذه الناحية أنه يرضى بذلك ولا يتطلع من وراء الحقيقة التى كان يسميها بالحقيقة المتواضعة الى طبقة من الحقائق فوقها يصح أن يسميها بالحقيقة الرفيعة أو الحقيقة العزيزة المنال ، ويخيل اليك أنه لم ينظر اليها قط نظرة الآسف على بعدها وصعوبة منالها ، ولم يقل عنا كما قال شاعرنا ابن الرومى فى شىء من الحسرة :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا تلك عليا مراتب الأنبياء

ولكنه ينظر اليها ولا يعنيه أن تقترب اليه أو تبتعد عنه ، وكأنما كان شعاره فى النظر الى عيوب الانسان « نعم .. هذه عيوبى ، وهذه غاية جهدى من الرضا بالدنيا والرضا عن الناس » .

وقد ألحق الأكثرون صاحبنا بزمرة المدرسة الطبيعية أو مدرسة

الطبيعيين Naturalits تشبيها له « باميل زولا » ومن جرى مجراه من خصوم المثالية والمجازية فى الآداب الأوربية الحديثة ، ولكنه على أصح الأقوال أقرب الى الواقعيين منه الى الطبيعيين ، لأن قدوته على التعبير السليم ترفعه عن منال تلك المدرسة الطبيعية التى تعجز عن التعبير الجميل المحكم فتتورط فيما تسميه بخشونة الفطرة وسذاجة الفن المطبوع ، وما هى فى الواقع غير سذاجة الخامة فى أيدى العاجزين عن الصقل والتهذيب .

وأصوب الآراء فيه أنه تلميذ فلوبير وليس بتلميذ زولا واخوانه الطبيعيين ، فمن فلوبير — وهو مواطنه — تعلم « الكلمة المحكمة » والتفصيل الذى يملك وسيلة الاستطراد بغير حاجة الى الفضول ، ولعله أدرك أستاذه وتفوق عليه فى هذه المزية ، لأنه خرج من حظيرة المدرسة المحدودة وانتهى الى مدرسة الفن الخالد التى تشبه كل فن فى كل حقبة ، فلا صبغة لها تفصلها عن الجيد المختار من عمل العباقرة الخالدين ، وانما هى صبغة واسعة تلتقى فى صفة من الصفات بكل ما يؤثر ويستجاد .

عباس محمود العقاد